الفصل الثانى

حسن العطار فى عصره

١ — موجز حياة

ولد الشيخ حسن العطار سنة ١١٨٠[١] هـ — سنة ١٧٦٦ م بالقاهرة ، وكان أهله من المغرب فانتقلوا إلى مصر . وكان أبوه عطاراً — ومن هنا جاءه هذا اللقب. واسم والده الشيخ محمد كتن ، وكان لهذا الوالد مشاركة فى بعض العلوم كما يدل عليه قول المترجم له فى بعض كتبه : «ذاكرت بهذا الوالد رحمه الله » . وقد استخدم الوالد ولده فى شئونه ، ولما رأى منه إقبالاً على العلم ساعده على تحصيله ، فكان يتردد على الأزهر ويحضر حلقات كبار مشايخه فى ذلك العصر ، ومنهم شيخاه محمد الأمير ومحمد الصبان .

ولما جاء الفرنسيون إلى مصر سنة ١٧٩٨ هرب إلى الصعيد[٢] خوفاً على نفسه من أذاهم ، ثم عاد إلى القاهرة بعد قليل فاتصل ببعض رجال الحملة من العلماء ، فأفاد منهم واطلع على كتبهم وآلاتهم وتجاربهم العلمية فكان ذلك بدء اتجاهه إلى تقدير العلوم الطبيعية والمناداة بضرورتها . وقد اشتغل فى الوقت نفسه بتعليم اللغة العربية لبعض هؤلاء العلماء الفرنسيين . ويعترف العطار باتصاله بالفرنسيين فى مقامة له يتحدث فيها عن الكتب التى رآها عند القوم قائلاً : (وكلها فى العلوم الرياضية والأدبية . وأطلعونى على آلات فلكية وهندسية) .

وقد اشتغل فى أثناء الحملة بالتدريس فى الأزهر ، فكان يقرأ على طلبته

---

(١) ذكر الزركلى فى الأعلام أنه ولد سنة ١١٩٠ هـ . والذى أثبتناه هو الصواب كما ذكره على مبارك فى الخطط التوفيقية . وذكر عمر الدسوقى صاحب كتاب « فى الأدب الحديث » أنه ولد سنة ١٨٦٦ م وهو خطأ مطبعى ظاهر .

(٢) ذكر عبد الرزاق البيطار فى «حلية» البشر أنه فر إلى دمياط ، وهو وهم والصحيح ما حققناه.

شرح الأزهرية للشيخ خالد فى علم النحو ، ويشير إلى ذلك فى مقدمة حاشيته على الأزهرية . ونراه بعد هذا — ولغير سبب معروف — يخرج من مصر فاراً إلى البلاد الرومية سنة ١٢١٧ هـ — سنة ١٨٠٢ م مستصحباً بعض كتبه ، ويشير هنا إلى ما دهم مصر (من حادثة الكفرة الفرنسيس) . ولعل الحوادث التى أعقبت خروج الفرنسيين من مصر قد أرغمته على الفرار من البلاد . وفى سنة ١٨١٠ م يدخل الشام قادماً من بلاد الروم ، فيلتمس منه أهل العلم فى دمشق قراءة شرح الأزهرية ، فيفعل رجاء نفعهم ، ويكون من تلاميذه هناك الشيخ حسن البيطار الذى استجازه فأجازه . . . وأقام العطار بالشام خمس سنين ، ثم عاد إلى مصر سنة ١٨١٥ م بعد أن غاب عنها ثلاثة عشر عاماً قضاها فى التجوال والترحال . وكانت الأمور فى مصر قد استقرت ، وصارت ولاية البلاد لمحمد على فعاد صاحبنا إلى التدريس بالأزهر[١] .

وفى سنة ١٢٤٦ هـ — سنة ١٨٣٠ م تولى الشيخ حسن العطار مشيخة الأزهر بعد الشيخ أحمد الدمهوجى[٢] ، فأداره على أحسن وجوه التدبير ، وظل فى منصبه إلى أن توفى سنة ١٨٣٥ وهو شيخ للأزهر ، حيث عين خلفاً له فى مشيخة الأزهر الشيخ حسن القويسنى المكفوف البصر ، وصاحب التآليف الفقهية الكثيرة . ومن لطائف الموافقات أن يتعاقب على مشيخة الأزهر عالمان اسم كل منهما « حسن » .

وقد استغل أحد ظرفاء ذلك الزمان من الشعراء هذه اللطيفة فقال يمدح الاثنين ويعترف بفضلهما ويجمع بين التعزية والتهنئة :

---

(١) توهم عبارة جرجى زيدان وعمر الدسوقى أن العطار بدأ يتولى التدريس فى الأزهر بعد عودته من الشام سنة ١٨١٥ ، والصواب أنه درس فى الأزهر فى أثناء الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ كما صرح هو بعبارته فى حاشيته على الشيخ خالد . . .

(٢) ذكر الأب لويس شيخو أن العطار تولى مشيخة الأزهر بعد الشيخ محمد العروسى ، وهو خطأ ، والصواب ما حققناه ، وقد تابعه على هذا الخطأ الأستاذ عمر الدسوقى الذى نقل عن طرازى وشيخو .

ولئن مضى (حسن) العلوم لربه فلقد أتى (حسن) وأحسن من حسن
أنت المقدم رتبة ورياسة وديانة من ذا الذى ساواك؟ من؟

وقد عُرف الشيخ حسن العطار بمؤلفاته الكثيرة، وخاصة حواشيه على كتب النحو والتوحيد والأصول والبلاغة. كما عرف بأسلوبه الأدبى وعبارته الإنشائية الأنيقة التى كانت تجرى على طريقة الزخرف والمحسنات. وله أشعار رقيقة سنعرض لها فى فصل خاص. وبلغ من اهتمامه بالشعر أنه جمع ديوان ابن سهل الأندلسى وبوبه.

أما ميله إلى العلوم الطبيعية والرياضية والفلك والطب فيدل عليه كتبه ورسائله فى كيفية العمل بالأسطرلاب، والربعين المقنطر والمجيب، والطب والتشريح، وأشكال التأسيس فى علم الهندسة، هذا إلى ما كان من إتقانه رسم المزاول الليلية والنهارية بيديه.

وقد امتاز حسن العطار بقراءته الواسعة العميقة للكتب العربية والمعربة فى زمانه. ولم يختص بعلم معين، أو بفن بعينه من الفنون، ولكنه كان حريصاً على الإفادة من كل علم. وكان يطرز الكتب التى يقرؤها بهوامشه وتعليقاته، ويقول فى ذلك تلميذه الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى: (كان له مشاركة فى كثير من العلوم، حتى فى العلوم الجغرافية، فقد وجدت بخطه هوامش جليلة على كتاب تقويم البلدان لإسماعيل أبى الفداء سلطان حماة المشهور أيضاً بالملك المؤيد. وللشيخ المذكور هوامش أيضاً وجدتها بأكثر التواريخ وعلى طبقات الأطباء وغيرها. وكان يطالع دائماً على الكتب المعربة من تواريخ وغيرها، وكان له ولوع شديد بسائر المعارف البشرية..)[1].

وتوفى العطار سنة ١٢٥٠ هـ — سنة ١٨٣٥[2].

---

(١) مباهج الألباب المصرية: لرفاعة الطهطاوى: مطلب أنه ينبغى للعلماء الشرعيين أن يتشبثوا أيضاً بمعرفة المعارف البشرية كالعلوم الحكمية العملية. ص ٣٧٥.

(٢) ذكر الشيخ عبد الرزاق البيطار فى حلية البشر أنه توفى سنة ١٢٣٥ هجرية، وهو خطأ خلط فيه صاحبه بين رقمى الآحاد والعشرات فى التاريخين الهجرى والميلادى.

٢ ـ شيوخ وأساتذة

يذكر الأب لويس شيخو اليسوعى ، والكونت فيليب طرازى اثنين من رجال الأزهر على أنهما بعض كبار المشايخ الذين أخذ حسن العطار العلم عنهم ، وهما الشيخ محمد الأمير ، والشيخ محمد الصبان . والواقع أن العطار نفسه لم يحوجنا إلى أن نتساءل عن أسماء الشيوخ الذين أخذ عنهم ، ففى إجازته العلمية التى كتبها للشيخ حسن البيطار الدمشقى فى أثناء إقامته بالشام يذكر لنا قائمة الشيوخ الذين « اقتبس أنوارهم ، واغتنم أسرارهم » . وندعه يقول بعبارته : (منهم ولله الحمد عدد كثير ، كل له قدر خطير . فمنهم العلامة الشيخ محمد الصبان ، والفهامة الشيخ أحمد بن يونس ، والشيخ عبد الرحمن المغربى ، والشيخ أحمد السجاعى ، والشيخ أحمد العروسى ، والشيخ عبد الله الشرقاوى ، والشيخ محمد الشنوانى ، والشيخ عبد الله سويدان وغير هؤلاء من السادة الشافعية . وأما من السادة المالكية فالإمام الشيخ محمد الأمير ، والشيخ محمد عرفة الدسوقى ، والشيخ أحمد برغوث ، والشيخ البيلى وغيرهم [1] ولنقف لحظة مع كل واحد من هؤلاء الذين كانوا شيوخ زمانهم فى القرن الثانى عشر . فالصبان هو صاحب الشروح والحواشى الكثيرة ، وكان ملازماً للجبرتى الوالد . ولازمه الإملاق أول أمره ، ثم أقبلت عليه الدنيا وازداد وجاهة وشهرة وخاصة بعد اتصاله بالوالى إسماعيل كتخدا . وتوفى سنة ١٧٩٢ م . ويشير إليه العطار دائماً فى حاشيته على شرح الأزهرية بقوله : شيخنا .

والشيخ أحمد بن يونس كان من المشتغلين بالنحو والأصول والجدل ، وله حواش ورسائل كثيرة ، وكان تلميذاً للجبرتى الوالد مدة ، وتوفى سنة ١٧٩٤ م. والشيخ أحمد السجاعى كان من فقهاء الشافعية بمصر ، وله شروح وحواش ومتون ورسائل فى الفقه والأدب والتصوف والمنطق . وقد اشتهر بحاشيته على شرح القطر لابن هشام النحوى . وتوفى سنة ١٧٨٣ م . والشيخ أحمد العروسى كان

---

(١) حلية البشر ج ١ ص ٤٩١ .

شيخاً للأزهر بعد وفاة الشيخ أحمد الدمنهورى ، وقد تتلمذ عليه الجبرتى المؤرخ وترجم له ، ولما توفى سنة ١٧٩٣ رثاه الشاعر السيد إسماعيل الخشاب بقصيدة مطلعها :

تغير وجه الدهر وازور جانبه وجاءت بأشراط المعاد عجائبه

وكدر صفو العيش وقع خطوبه وقد كان وردًا صافياتٍ مشاربه

وقد اشتهر العروسى بحاشيته على الملوى على متن السمرقندية فى الاستعارات .

والشيخ عبد الله الشرقاوى كان فقيهاً نحوياً محدثاً مؤرخاً ، تخرج فى الأزهر وتولى مشيخته لبضعة عشر عاماً وكانت الحملة الفرنسية فى خلال عهده بالمشيخة ، وكان أحد العلماء العشرة الذين كوّن منهم بونابرت ديوان القاهرة ، وقد اشترك فى البيان الذى أكرهوا على توقيعه للتحذير من معارضة سلطات الاحتلال الفرنسى . وقد اشتهر بكتابه « تحفة الناظرين ، فيمن ولى مصر من السلاطين » . ويجىء ترتيبه الحادى عشر فى شيوخ الأزهر منذ إنشاء هذه الوظيفة . والشيخ محمد الشنوانى كان من علماء الأزهر المشتغلين بالفقه والحديث والنحو ، وتولى مشيخة الأزهر بعد وفاة الشرقاوى مباشرة ، وظل فيها ست سنوات ، وله حواش فى الحديث والتوحيد ، وتوفى سنة ١٨١٨ م . والشيخ عبد الله سويدان كان من علماء الأزهر المشاركين فى الحديث والوعظ والأصول ، واشتهر بسويدان ، وكان كفيف البصر ، وله مؤلفات فى مصطلح الحديث وتوفى سنة ١٨١٩ م والشيخ محمد الأمير كان من فقهاء المالكية الكبار وعالماً بالعربية . وهو من بلدة سنبو من صعيد مصر ، ولهذا سمى بالسنباوى ، واشتهر بالأمير لأن جده كانت له إمرة فى الصعيد ، وهو كالشيخ حسن العطار من حيث أصوله المغربية . وأكثر كتبه حواش وشروح وتقارير . واشتهر بحاشيته على كتاب المغنى لابن هشام ، وبشرحه لمختصر خليل فى الفقه المالكى ، وكان شيخاً مبجلا ممدحا . وللشاعر إسماعيل الخشاب فيه مدائح متنوعة مذكورة فى ديوانه المطبوع بالجوائب ، وتوفى الأمير سنة ١٨١٧ م . والشيخ محمد عرفة الدسوقى كان من علماء المالكية ،

وله مشاركات فى الفقه والكلام والبلاغة والنحو والهندسة والهيئة والتوقيت ، واشتهر بحاشيته على المغنى ، وحاشيته على شرح السنوسى على مقدمة أم البراهين فى العقائد ، وحاشيته على شرح البردة لجلال الدين المحلى . وتوفى سنة ١٨١٥ م . والشيخ أحمد برغوث كان من علماء المالكية كذلك ، وهو من مواليد قرية اليهودية بالبحيرة ، وكان فيه انعزال عن الناس ، وانكسار وتواضع . ويذكر المؤرخ عبد الرزاق البيطار أنه (لم يتزى بزى الفقهاء ، ولم يظهر بمظاهر العلماء ويمشى فى حوائجه لنفسه . . .) وتوفى سنة ١٨٠٩ م . والشيخ أحمد البيلى كان من علماء المالكية أيضاً ، وقد ترجم له الجبرتى ، وعلى مبارك ، والبيطار ، وعمر رضا كحالة ، وهو من بلدة بنى عدى من صعيد مصر . وقد اشتهر بحافظة قوية غريبة ، فكان يملى على الطلاب ما ذكره أصحاب المتون والحواشى دون رجوع إلى الكتب وتوفى سنة ١٨٠٠ م .

هؤلاء هم شيوخ الشيخ حسن العطار وأساتذته . وهم كما ترى يمثلون ثقافة الأزهر واتجاهاته العلمية والفكرية فى ذلك العصر . وإن كان المترجم له قد رأى ببعد نظره ، وسعة أفقه ، وشدة تطلعاته أن يتجاوز الدائرة التى كانت تحيط بعلوم الأزهر ومؤلفات رجاله إلى دائرة أوسع تلائم العصر ، وتحقق تسخير الإنسان لقوى الطبيعة فى هذا الكون الرحيب . . .

٣ ـ تلاميذ نجباء

إذا كان الشيخ حسن العطار قد صُنع على يد طائفة كريمة من علماء وقته ومشهورى عصره ، فقبس منهم ألوان المعارف التى كانت سائدة فى زمانه ، فإن الله قد جعل منه شيخاً مباركاً وأستاذاً كريماً تخرج بعلمه وأدبه جماعة من كبار الرجال فى عصره . ويكفيه فخراً أن يكون الشيخ رفاعة الطهطاوى رائد الفكر وإمام النهضة الحديثة فى القرن التاسع عشر أحد تلاميذه النجباء . ويذكر مؤرخنا عبد الرحمن الرافعى أن الشيخ رفاعة الطهطاوى أخذ العلم عن الشيخ حسن

العطار ، فأحبه الشيخ لما آنسه فيه من الذكاء والانكباب على العلم ، وقربه إليه ، وحفه برعايته . وكان التلميذ رفاعة يتردد على شيخه كثيراً فى بيته ، ويأخذ عنه العلم والأدب والجغرافية والتاريخ . ولما كان العطار ميالا بطبعه إلى العلوم العصرية ولا يرى الانحصار فى دائرة كتب الشرع فحسب ، فقد أودع هذا الميل فى نفس تلميذه رفاعة الطهطاوى ، مما أهله بعد ذلك ليكون إماماً للبعثة العلمية فى باريس ، ومما فتح ذهنه إلى البحث وسلامة التفكير والإسهام فى نقل العلوم عن الغربيين حتى يفيد منها أهل وطنه . وهنا يظهر فضل العطار على رفاعة الطهطاوى ، فهو أول من وجهه إلى الاغتراف من موارد العلم والأدب ، وهو أول من قوّم عبارته وحررها من كثير من قيود عصره ، وهو أول من دله على قيمة العلوم العملية الطبيعية وضرورتها بما لا يقل عن أهمية العلوم الشرعية .

ولقد كان رفاعة أثيراً عند شيخه حسن العطار ، وطالما فتح له الشيخ بيته وصدره وأذنه ليسمعه من رائق الشعر وفائق النثر (ما يستدل به شيخه على أنه وحيد عصره ، وفريد مصره ، وأنه صاحب القريحة الوقادة ، والفكرة النقادة) . وما ضن الشيخ على تلميذه بعطف ولا رعاية ولا توجيه ، فهو الذى اختاره عند محمد على ليكون إماماً لبعثة باريس ، وهو الذى أوصاه بتأليف كتاب فى هذه الرحلة ، وهو الذى فتح عينيه على القيم الكبرى للحياة والعلم الحقيقى لا علم الحواشى والشروح . . . وندع المؤرخ صالح مجدى يحدثنا فى كتابه « حلية الزمن » عن هذه التلمذة قائلاً : (وأما تلمذته — يعنى رفاعة الطهطاوى — للشيخ حسن العطار المتوفى فى اثنين وعشرين من شهر ذى القعدة سنة خمسين ومائتين وألف[1] وقد آلت مشيخة الأزهر إليه قبل العلامة الشيخ حسن القويسنى ، فكانت مستمرة من مبدأ دخول صاحب الترجمة إلى خروجه من الأزهر بمعية من أرسلوا من مصر إلى باريس لاكتساب العلوم الأجنبية ، حيث انتخبه لذلك العلامة المشار إليه ، وأوصاه بعمل رحلته الباريسية الآتى ذكرها عند بعض مؤلفاته وتعريباته .

---

(١) يحقق لنا هذا النص سنة وفاة الشيخ حسن العطار ، ويصحح ما ذكره المرحوم الشيخ عبد الرزاق البيطار خطأ فى حلية البشر .

وكان للمرحوم فضيلة الامتياز عند الأستاذ العطار عن سائر طلبته ، وكثيراً ما كان يلازم بيت الأستاذ المذكور فى غير الدروس ليتلقى عنه علوماً أخرى ، كالتاريخ والجغرافية والأدب) [١] .

وثانى تلاميذ الشيخ حسن العطار هو الشيخ حسن قويدر ، وهو مغربى الأصل كأستاذه ، ولكن أسرته نزحت إلى فلسطين وأقامت بها ، وولد هو بالقاهرة . وكان مشهوراً بالعلم والأدب ، ولكنه جمع بين ذلك وبين أسباب الرزق فكان يتعاطى التجارة بين مصر والشام ، ويملأ أوقات فراغه بالتأليف والمذاكرة فى العلوم . ولقد بلغ من إعجابه بشيخه العطار أنه ألف كتاباً فى الإنشاء والمراسلات عنوانه « زهر النبات » على غرار الكتاب الذى ألفه حسن العطار فى الإنشاء . كما أنه شرح منظومة حسن العطار فى النحو شرحاً مطولاً ، ولم يكتف التلميذ بشرح منظومة أستاذه بل قرظها شعراً يقول فيه :

منظومة الفاضل العطار قد عبقت ... منها القلوب بريا نكهة عطره
لو لم تكن روضة فى النحو يانعة ... لما جنى الفكر منها هذه الثمره
فى ظلمة الجهل لو أبدت محاسنها ... والليل داج أرانا وجهها قمره
قالوا جواهر لفظ ، قلت : لاعجب ... بحر البلاغة قد أدى [٢] لنا درره

ومن مؤلفاته : نيل الأرب فى مثلثات العرب ، وشرح منظومة العطار فى النحو ، وزهر النبات ، وشرح على مزدوجته البديعية ، ورسالة الأغلال والسلاسل ، فى مجنون اسمه عاقل [٣] .

وثالث تلاميذ حسن العطار هو الشيخ محمد عياد الطنطاوى . ونكتفى هنا بما ذكره المستشرق الروسى الكبير أغناطيوس كراتشكوفسكى فى كتابه « حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى » قائلاً : (كذلك كان من معلمى الطنطاوى ،

---

(١) حلية الزمن بمناقب خادم الوطن – لصالح مجدى ص ٢٥ .
(٢) الآداب العربية للويس شيخو – ج ١ ص ٥٣ ، وحلية البشر للبيطار ج ١ ص ٥٠٥ .
(٣) أعيان البيان لحسن السندوبى ص ١٩ .

حسن العطار ١٧٦٦ هـ — ١٨٣٤ م[١] . ولم يكن الشيخ حسن العطار عالماً فحسب ، بل وشاعراً أيضاً ، وقد رأى من المستطاع أن يتقرب من الفرنسيين ليتعرف إلى تفوق ثقافتهم ، ولم يرفض فى أيام شيخوخته أن يكون محرراً لأول جريدة عربية مصرية أسسها محمد على ، وفى السنوات الأخيرة من عمره صارت إليه مشيخة الأزهر)[٢] .

أما رابع تلاميذ حسن العطار فهو الشاعر المصرى الشيخ محمد شهاب الدين ، من مواليد مكة ، ومن المقيمين بمصر . ويذكر جرجى زيدان [٣] أنه تفقه فى الأزهر على الشيخين : العروسى وحسن العطار ، كما يذكر ذلك الأب لويس شيخو اليسوعى . ويزيد شيخو على هذا قائلاً : إنه لما أنشأ الشيخ حسن أول جريدة (كذا) طبعت فى الشرق وهى الوقائع المصرية سنة ١٨٢٨ اتخذ شهاب الدين كمساعد له فى إنشائها (كذا) ثم خلفه فى إدارتها سنة ١٢٥٢ — سنة ١٨٣٦ .

وهذا كلام يحتاج إلى الوقوف أمامه ، فإن مسألة إنشاء حسن العطار للوقائع وتحريره فيها لا تزال موضع خلاف بين المحققين . . . وسنعالجها فى فصل خاص . وقد ترك لنا الشاعر محمد شهاب الدين من مؤلفاته « سفينة الملك ، ونفيسة الفلك » وفيها نماذج كثيرة من الموالى والموشحات والأزجال والأهازيج التى يتغنى بها ، كما ترك لنا « ديوان شهاب الدين » وكان لنا حظ دراسته وتحليله فى كتابنا « تراجم عربية » .

٤ — بين التدريس والمشيخة

جمع الشيخ حسن العطار فى حياته المباركة بين التدريس فى الأزهر أول عمره ، ومشيخة الجامع الأزهر فى ختام حياته . وكثير من علماء الأزهر المشهورين

---

(١) هذا التاريخ الميلادى يحتاج إلى تصحيح ، وصوابه سنة ١٨٣٥ كما ذكرنا قبلا .

(٢) انظر كتاب « حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى » من مراجعتنا وتحقيقنا وتعليقنا ، وهو من منشورات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٤ ص ٢١٣ .

لم يجمعوا بين الاثنين ، كالشيخ الأمير ، والصبان ، وعلى الصعيدى ، وأحمد السجاعى ، ومحمد عرفة الدسوقى وغيرهم .

وتوهم عبارة جرجى زيدان ، والأب لويس شيخو ، والكونت فيليب طرازى أن العطار ابتدأ التدريس فى الأزهر بعد عودته من رحلته الطويلة إلى بلاد الروم والشام سنة ١٨١٥ م ، وقد نقل الأستاذ عمر الدسوقى عنهم هذه العبارة بما تحمله من الوهم والإيهام دون تمحيص[١] . والحق أنها مزلقة كان يجب التفطن إليها ! فإن العطار نفسه يصرح فى مقدمة كتابه : « حاشية على شرح الأزهرية فى علم النحو للشيخ خالد » بأنه كان يدرس هذا الكتاب ويقرؤه على طلبته بالأزهر فى خلال الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٩ ، كما أن العطار فى إجازته التى كتبها للشيخ حسن البيطار العالم الدمشقى ذكر فى ختامها أنه (خادم العلم بالأزهر الشريف) . وكان ذلك بالطبع فى أوائل سنة ١٨١٠ م — أى قبل عودته إلى مصر بخمس سنوات .

وكانت حلقة الشيخ العطار بالأزهر تغص بالطلاب ، فقد كان العلماء — كما ذكره مؤرخ معاصر — يتركون حلقات غيره ، ويتكاثرون على حلقته يستمعون[٢] . وقد نقل هذا المؤرخ هذه الحقيقة عن كتاب الخطط التوفيقية لعلى مبارك حيث يقول : (وقد مضت مدة على تفسير البيضاوى لا يقرؤه أحد ؛ فحضره أكابر المشايخ . فكانوا إذا جلس للدرس تركوا حلقتهم وقاموا إلى درسه)[٣] .

ولا شك أن تحرر الشيخ حسن العطار الفكرى وبعده من الجمود ودعوته الجديدة إلى الأخذ بالعلوم الحديثة مع الاهتمام بالعلوم القديمة قد جذب إليه الطلاب من كل فج ، وهداهم إلى مجلسه فى أثناء تدريسه بالأزهر . ويستوى فى ذلك مقامه بمصر أم بالخارج . ففى مقامه بدمشق لفت إليه أنظار طلبة العلم

---

(١) انظر « فى الأدب الحديث » لعمر الدسوقى جـ ١ ص ٤٦ ، وزيدان جـ ٤ ص ٢٣٢ ، وتاريخ الصحافة العربية لطرازى جـ ١ ص ١٢٩ وتاريخ الآداب العربية لشيخو جـ ١ ص ٥٢ .

(٢) مصر فى القرن الثامن عشر — لمحمود الشرقاوى — جـ ١ ص ٥٠ .

(٣) الخطط التوفيقية جـ ٤ ص ٣٩ .

هناك (فتلقاه أهلها بما لاق ، وعقدوا على تفوقه وتفرده بالفضائل كلمة الاتفاق) كما يقول مترجم سيرته عبد الرزاق البيطار .

ومن عجب أن النقص الذى كان يشكو منه العطار فى برامج الأزهر وكتبه واتجاهاته العلمية قبل أن تؤول إليه مشيخة الأزهر ، لم يتناوله بالإصلاح والمعالجة بعد أن آلت إليه المشيخة . وقد كان يُرجى منه — بعد تنبهه لحالة الأزهر وهو مدرس فيه — أن يعمل شيئاً لإصلاحه ، ولكنه لم يصنع فى هذا السبيل شيئاً . ولعله جارى اتجاه محمد على فى إغفال شأن الأزهر ، فقد رأى هذا الوالى — بما أوتيه من مكر عميق — أن يترك الأزهر على حاله ونظامه القديم ، مخافة أن يثير سخط العلماء إذا حاول إصلاحه وجعله يساير حركة التقدم العلمى الحديث. ولا نقول — كما قال عبد الرحمن الرافعى — أنه لم يجد بين العلماء من يضطلع بهذه المهمة ويعهد إليه بها [1] ، فقد كان من الممكن أن يقوم بهذا الإصلاح الشيخ حسن العطار ، وهو قادر عليه . وكان من الممكن أن يقوم به الشيخ رفاعة الطهطاوى ، ولكن الوالى رأى أن الوقت لم يكن مناسباً بعد للإصلاح ، وأن النفوس لم تكن مهيأة له .

وقد تولى العطار مشيخة الأزهر سنة ١٨٣٠ بعد ما أوفت سنه على الخامسة والستين ، فجاء بعد الشيخ أحمد بن على الدمهوجى الشافعى — لا بعد الشيخ أحمد [2] العروسى كما ذكر خطأ بعض المؤرخين ومن تابعهم من المؤلفين . ومن هنا لا يعتد بما جاء فى كتب « الآداب العربية فى القرن التاسع عشر » و « تاريخ الصحافة العربية » و « فى الأدب الحديث » فإنها تنقل الخطأ عن بعضها بعضاً .

ويلوم المرحوم العالم المحقق الأستاذ عبد المتعال الصعيدى ، الشيخ حسن العطار على إهماله إصلاح الأزهر واكتفائه (بذلك الصوت الخافت الذى أرسله فى مواضع يصعب العثور عليها من حاشيته على شرح جمع الجوامع ، بل كان

---

(١) عصر محمد على ج ٣ ص ٦٠٨ .

(٢) ذكر الأب شيخو أن اسمه محمد العروسى ، والصواب أحمد — ص ٥٢ .

يجب عليه أن يجهر بذلك الصوت بين جنبات الأزهر لينبه أهله من غفلتهم ، ويوقظهم من رقدتهم[١]) كما يتهمه بأنه كان ضعيف الروح (فلو رزق الروح القوية لأدخل الإصلاح فى الأزهر بالقوة ، كما أدخل محمد على الإصلاح فى مصر بالقوة)[٢] ونسى الأستاذ الصعيدى أن محمد على لم يكن فى نيته إصلاح الأزهر لأسباب ليس هنا مجال مناقشتها فى مقام ضيق . . .

٥ ــ بين العطار والشاعر بطرس كرامة

تصادفنا فى الجزء الرابع من « الخطط التوفيقية » عبارة نقلها المؤرخ على مبارك عن الشيخ حسن العطار يقول فيها المترجم له بعبارته : (قدم علينا بمصر عام سبعة وثلاثين بعد المائتين والألف ، كبير رجال الدروز لقيام أهل الجبال عليه ، ملتجئاً بوزيرها محمد على ، وقدم بصحبته بطرس النصرانى ، فاجتمع بالفقير ــ يعنى العطار نفسه ــ مراراً ، ورأيت منه أدباً جماً ، ومحاضرة ومعرفة بالتواريخ والأيام والأنساب والنحو وغير ذلك ، وكان يكتب الخط الحسن ، وامتدحنى بقصيدة منها :

أما الذكاء فإنه أذكى وأبرع من إياسه
أضحى البديع رفيقه لما تفرد فى جناسه
فى أى فن شئته فكأنه بانى أساسه)

فمن هو كبير الدروز هذا الذى ثار عليه أهل الجبال والتجأ إلى مصر محتمياً بمحمد على ؟ ومن هو بطرس النصرانى هذا الذى جاء بصحبته ؟ والذى كان جم الأدب ، حسن المحاضرة ، عارفاً بالتاريخ والأيام والأنساب والنحو ، والذى كان حسن الخط ، حاضر الشعر إلى حد أنه مدح الشيخ حسن العطار بقصيدة

(١ ، ٢) تاريخ الإصلاح فى الأزهر جـ ١ ص ٢٢ ، ٢٤ للشيخ عبد المتعال الصعيدى .

روى لنا المترجم ثلاثة من أبياتها ؟

الحق أن هذا الخبر قد يقبله القارئ العادى بدون أن يلفت نظره فيه شيء ، ولكن القارئ المتعمق المتفطن للأحداث وتواريخ الرجال يقف عنده وقفات طويلات . . . فكبير الدروز هذا لم يكن — كما روى ، وهماً ، على مبارك عن العطار — رجلا من الدروز ولا كبيرهم ! وإنما هو الأمير بشير الشهابى ، الذى كان مسيحياً — ولم يكن درزياً فأعلن إسلامه . أما الشيخ بشير جنبلاط فكان كبير الدروز ، وليس هو من بيت الأمراء الشهابيين . ولكن اسم « بشير » اختلط على الراوى والناقل . فبشير الشهابى المسيحى الذى اعتنق الإسلام والذى جاء إلى مصر وفى صحبته « بطرس النصرانى » هو غير الشيخ بشير جنبلاط كبير الدروز ، وهو لم يجئ إلى مصر ، ولم يكن له شأن مع محمد على . والحق أن أهل الجبال — يعنى جبال لبنان — قد ثاروا على الأمير بشير الشهابى لأسباب سياسية لا محل لذكرها هنا ، وكانت أسرة جنبلاط الدرزية تؤيد الأمير بشير الشهابى وتناصره[1] ليحفظوا بهذا نفوذهم وسطوتهم أمام الأسر الدرزية الأخرى ، ومن هنا جاءت العداوة بين الأمير بشير وبين الدروز . ولم يخضع بعض أهل لبنان لسلطان الأمير بشير الشهابى وأبوا أن يدفعوا له المال المفروض عليهم ، فقامت بينه وبينهم حروب ودسائس انتهت بمجيئه إلى مصر سنة ١٨٢١ ملتجئاً إلى محمد على ، ومتفاهما معه على بعض الأوضاع فى الشام ، وفى صحبته شاعره الأديب اللبنانى الكبير بطرس كرامة صاحب ديوان « سجع الحمامة » وأقرب المقربين إلى الأمير بشير . هذا هو « كبير الدروز » الذى أشار إليه حسن العطار فى كلامه عن نفسه ، وهذا هو « بطرس النصرانى » الذى كان فى صحبته . . .

وقد روى الكونت طرازى ، والأب لويس شيخو البيتين اللذين قالهما الشاعر اللبنانى بطرس كرامة فى مدح الشيخ حسن العطار حين قابله بمصر لأول مرة ، وهما :

---

(١) تراجم مشاهير الشرق : لزيدان ج ١ ص ٦٤ — ٦٨ .

قد كنت أسمع عنكم كل نادرة حتى رأيتك ياسؤلى ويا أربى[1]
والله ما سمعت أذنى بما نظرت لديك عيناى من فضل ومن أدب

على أن الأبيات الثلاثة التى رواها حسن العطار نفسه هى من قصيدة طويلة للشاعر بطرس كرامة فى مدحه مطلعها :

وافى يطوف بشمس كاسه قمر تلثم فى نواسه[2]
طاب الصبوح فخذ على ورد بوجنته وآسه ...

وتبلغ أبياتها تسعة وعشرين بيتاً .

والحق أن الشاعر كرامة لم يمدح حسن العطار وحده فى مصر ، بل مدح العالم الكبير الشيخ المهدى ، ولكنه خاط فى مدحه بين العلماء والقيان ، فمدح بمصر مغنية فى عصر محمد على كانت تدعى « أم رضوان » ، فقال وأبدع :

رعى الله مصراً إن مصراً لجنة يزول بها من صاحب الهم همُّه
ففى جنة الفردوس رضوان وحده وفى مصر رضوان كذاك وأمُّه !

والحق أن « كرامة » أعجب بمصر كلها ما بين علمائها وقيانها ، ورجالها ونسائها ، فقال يمدحها بقصيدة مطلعها :

تجلت لدينا فى محاسنها مصر فراق لنا وجه المسرة والبشر

ولقد اختلط الأمر على مؤلف كتاب « مصر فى القرن الثامن عشر » فذكر أن الذى قدم إلى مصر فى أيام محمد على وتعرف إليه حسن العطار (هو رجل من الدروز اسمه بطرس)[3] . ولن نضيف هنا تصحيحاً جديداً ، فبطرس

(١) تاريخ الصحافة العربية ج ١ ص ١٣٠ . و « تاريخ الآداب العربية » لشيخو ص ٥٢. وديوان كرامة ص ٢٩١ .

(٢) ديوان سجع الحمامة ص ٣٠٠ .

(٣) صفحة ٥٠ من الجزء الأول من كتاب « مصر فى القرن الثامن عشر » للأستاذ المؤرخ محمود الشرقاوى . وهو كتاب نفيس فى موضوعه .

كرامة لبنانى مسيحى كان شاعر الأمير بشير الشهابى ، وما كان درزيًّا فى يوم من أيام حياته .

٦ ـ التحرير فى الوقائع المصرية

فى بضعة من كتب تاريخ الأدب والنقد والتراجم التى ترجمت للشيخ حسن العطار نجد أنها تكاد تجمع على أن هذا الموجه الأول لحركة الأخذ بالعلوم الحديثة قد اشتغل بالتحرير فى صحيفة الوقائع المصرية التى أنشأها محمد على سنة ١٨٢٨ هـ وجعلها لسان حال الحكومة ، والجريدة الرسمية للدولة . فنرى الأب لويس شيخو يذكر أنه (لما أنشأ الشيخ حسن العطار أول جريدة طبعت فى الشرق وهى الوقائع المصرية سنة ١٨٢٨ اتخذ كمساعد له فى إنشائها شهاب الدين المذكور ـ يعنى الشاعر شهاب الدين[١]) . ونرى مؤلف تاريخ الصحافة العربية يذكر فى الفصل الذى كتبه عن الوقائع المصرية أنه قد تولى تحريرها بعد رفاعة الطهطاوى كثير من أرباب الشهرة الواسعة فى العلم ، من أمثال فارس الشدياق ، وحسن العطار[٢] . وعن هذين المصدرين نقل المؤرخ جرجى زيدان[٣] . وظل الخبر ينقل من مصدر إلى مصدر حتى رواه الأساتذة أحمد الإسكندرى وأحمد أمين وزملاؤهما فى كتاب « المفصل » على الصورة الآتية : (وعاد حسن العطار إلى مصر فتولى تحرير الوقائع المصرية)[٤] . وكرر هؤلاء الأساتذة هذا الخبر فى كتاب « المنتخب من أدب العرب » الذى كلفوا جمعه وشرحه من قبل وزارة التربية والتعليم . وفى معجم « المنجد » للأب لويس معلوف اليسوعى أن العطار هو محرر جريدة الوقائع المصرية لأمر محمد على . ويذكر صاحب كتاب « فى الأدب الحديث[٥] » أن العطار عهد إليه بتحرير الوقائع المصرية بعد أوبته

---

(١) الآداب العربية ج ١ ص ٨٤ .

(٢) تاريخ الصحافة العربية لطرازى ج ١ ـ ص ٤٩ ـ ٥٠ .

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية ـ ج ٤ ص ٥٢ .

(٤) المفصل ص ٣٣٥ .

(٥) هو الأستاذ عمر الدسوقى

إلى مصر [١] . ويردد الأستاذ محمود الشرقاوى هذه الرواية قائلاً إن محمد على اختار الشيخ حسن العطار محرراً للوقائع المصرية أول صدورها [٢] .

ونجد من أصحاب الموسوعات فى تراجم الرجال أن الأستاذ خير الدين الزركلى[٣] يتفق مع الأب لويس شيخو فى أن حسن العطار تولى إنشاء جريدة الوقائع المصرية فى بدء صدورها ؛ فهما لا يكتفيان بأن ينسبا إليه القيام بتحرير الوقائع بل ينسبا إليه القيام بإنشائها . . . على حين أن الأستاذ عمر رضا كحالة — مؤلف موسوعة معجم المؤلفين — لا يتعرض لحكاية الوقائع المصرية بنفى أو تأكيد بل يسقطها من حساب السيرة . . .

أما الأستاذ سامى بدراوى فله دراسة جيدة عن الشيخ حسن العطار فى مجلة « المجلة » ؛ وفيها يكرر حكاية تحرير العطار للوقائع المصرية فى ثلاثة مواضع من مقاله ؛ ويزيد أن سر اختياره أول محرر للوقائع المصرية يكمن وراء جمال أسلوبه [٤] . ويتقدم كاتب هذا المقال خطوة فى الإثبات فيشير إلى بعض الإشارة الدالة على موقف العطار السياسى فى عهد محمد على قائلاً : (أما الإشارة الثانية إلى موقف العطار السياسى فى عهد محمد على فنجدها فى الوقائع ، فى الفترة التى ولى فيها العطار تحرير القسم العربى منها ١٨٢٨ — ١٨٣٠ م . وخلاصة هذه الإشارة أن أحد محررى الوقائع واسمه عزيز أفندى كان يحرص على أن يعرض الأخبار التى ترد إليه من محمد على عرضاً موجهاً ؛ أى أنه كان يعلق عليها برأيه الشخصى ، ولم يرض ذلك محمدا عليا ؛ فلفت نظر عزيز أفندى مرة ومرة . وفى الثالثة نحاه نهائياً عن الوقائع . وبعد ذلك بقليل نجد رئيس التحرير نفسه يعتذر عن كتابته بعض أشياء لم يكن مطلعا عليها فوقع بها الخطأ ؛ وأن سعادته — يعنى محمد على — أمر بأنه لا يكتب شىء إلا بعد الاطلاع على حقيقته ليكون

---

(١) فى الأدب الحديث : لعمر الدسوقى ص ٤٦ .

(٢) مصر فى القرن الثامن عشر — ج ١ ص ٥٠ .

(٣) انظر معجمه الكبير (الأعلام) ج ٢ ص ٢٣٦ .

(٤) مجلة المجلة عدد مارس سنة ١٩٦٥ ص ٣١ — ٣٣ — ٣٥ .

خالياً من السهو والخطأ . ويشكر المحرر محمداً علياً لتجاوزه عن هذا الأمر ، بل واختياره المحرر عضواً فى المجلس العالى من غير استحقاق) [١] .

هذه قصة اشتراك الشيخ حسن العطار فى تحرير الوقائع المصرية وفى إنشائها ، ولكنا نجد مؤرخاً حديثاً للصحافة ، بل مؤرخاً للوقائع المصرية نفسها ينكر مشاركة العطار فى تحريرها ؛ ويقول بنص عبارته : (وعندى من الأسباب ما يجعلنى أستبعد إلقاء أمر التحرير العربى فى جريدة الوقائع إلى الشيخ حسن العطار . فقد أنكرته الوثائق الرسمية إنكاراً تاماً ، بينما حرصت على ذكر تفاصيل إدارة الوقائع وتحريرها . وهى تفاصيل دون قدر الرجل ومكانته كمحرر اللغة العربية فى الصحيفة الرسمية ، وكان أحق بالذكر منها ، والشيخ حسن العطار شاعر ناثر لا ينافسه فى ميدان الإنشاء والتحرير منافس . . . وما أثر عن أسلوب العطار لا يتفق مطلقاً مع تحرير الوقائع التى هوى أسلوبها وكاد يصل فى معظم أعدادها إلى اللغة الدارجة) [٢] .

ولا بد فى ختام هذا الفصل من أن نصحح وهماً كبيراً وقع فى كتاب « أدب المقالة الصحفية فى مصر » وفى الجزء الأول منه . فقد ذكر مؤلفه الفاضل أنه كان يشرف على تحرير القسم العربى بالوقائع رجلان هما : السيد جمال الدين الأفغانى ، ومحمد بن إسماعيل ، والشيخ عبد الرحمن الصفتى ! ! وواضح أن فى الكلام اضطراباً ساقه هذا المساق ، الذى لا يعز كشفه على فطنة المؤلف وعلمه . كما لا يعز تصويبه على القارئ الكريم الذى يعرف أين مكان السيد جمال الدين الأفغانى من عصر محمد على ؟ ؟

٧ – بين العطار والجبرتى المؤرخ

شاءت الأقدار أن يلتقى ثلاثة من أعلام مصر فى عهد الحملة الفرنسية وفى عهد محمد على على صداقة متينة لم تنل منها الأيام ، على الرغم من اختلاف

---

(١) مجلة المجلة – عدد مارس سنة ٦٥ ص ٣٥ .

(٢) تاريخ الوقائع المصرية : ص ٦٧ – ٦٨ نشر مكتبة الآداب بالقاهرة .

مشاربهم فى الحياة . وهؤلاء الثلاثة هم الشاعر إسماعيل الخشاب ، والعالم حسن العطار ، والمؤرخ عبد الرحمن الجبرتى . وسنلتقى فى فصل مقبل مع هذا الثالوث فى مطارحه وفى مطارحاته . . . ولكننا هنا فى هذا الفصل سنتحدث عن وجهتى حسن العطار والجبرتى ورأيهما فى الحكم وفى الدولة الجديدة التى عهدت إليها الأقدار أن تتولى زمام مصر فى أول القرن التاسع عشر ، وهى الدولة التى أقامها محمد على . ويلفت النظر عند نظرتنا إلى هذين الصديقين المفكرين اختلاف منهجهما فى الحياة وخاصة عند قيام حكم محمد على . فالجبرتى المؤرخ كان مقدراً لذكاء محمد على ونشاطه ودهائه ومضائه فى كل أمره ، وشهامته وتدبيره ، ولكنه كان ينقم عليه أموراً منها ظلمه وظلم ولده إبراهيم واستبداده بالأمر ، وطغيان شخصه على الشخصية المصرية .

والجبرتى — فى تاريخه العظيم — يقف للدولة العلوية الجديدة بالمرصاد ، يسجل أخطاءها ، ويرصد عيوبها . فلا يخشى مثلاً أن يقول فى كتابه عن محمد على إنه « يمتاز بالدهاء ، والحيلة ، والمداهنة » ، بل وصفه مؤرخنا فوق هذا بحلفه الأيمان الكاذبة للنقيب السيد عمر مكرم (على سيره بالعدل وإقامة الأحكام والشرائع ، والإقلاع عن المظالم . . . فيتورط المخاطب بذلك القول ، ويظن صحته ! !)

والجبرتى المؤرخ كان يرى دولة محمد على دولة ظالمة ، ويسمى رجالها وأنصارها بالظالمين . . . وكان يرى أن الذين أعانوها على قيامها مشاركون لها فى الظلم . . . وذلك كان رأيه فى عمر مكرم حين نفاه محمد على ، (فإن الذى وقع له بعض ما يستحقه ، ومن أعان ظالماً سلط عليه ، ولا يظلم ربك أحدا . . .)

والجبرتى يصف ما فعله إبراهيم بن محمد على بأهل الصعيد من تعذيب قائلاً : (. . . فإنه فعل بهم فعل التتار ، عندما جالوا بالأقطار ، وأذل أعزة أهلها . . . وليس ذلك ببعيد على شاب جاهل ، سنه دون العشرين عاماً ، وحضر من بلده ولم ير غير ما هو فيه . . . لم يؤدبه مؤدب ، ولا يعرف شريعة ولا مأمورات ، ولا منهيات . . .) [1] .

---

(١) دراسات فى الأدب العربى والتاريخ — لمحمد عبد الغنى حسن — ص ٣٤٨ — ٣٤٩ .

ولقد فر العطار من القاهرة حين جاء الفرنسيون إلى مصر ، كما فر الجبرتى المؤرخ إلى مزرعته فى بلدة أبيار ، وعاد العطار من مفره بالصعيد كما عاد الجبرتى . . . ولكن العطار اتصل بعلماء الحملة اتصالاً قريباً ، على حين كان الجبرتى يباعد نفسه منهم .

وعلى حين نرى هذا النقد اللاذع ، وهذا الغضب المصبوب على محمد على ورجاله من الجبرتى المؤرخ ، نرى الشيخ حسن العطار يمدح محمد على ويغلى فى مدحه فى مفتتح كتابه (إنشاء عطار) واصفاً إياه بأنه (مدبر الممالك ، مؤمّن المسالك ، منوّر الحوالك ، زينة الأسرة والأرائك ، قامع البغاة ، مبيد الطغاة . . .) إلى آخر هذه التراتيل المعروفة التى لا يحذقها إلا مصانع كاسب لمودات الرجال . . . بل نراه يتجه بالشعر إلى مدح إبراهيم « باشا » عند عودته ظافراً من حروب الشام قائلاً فى مطلع القصيدة :

سَمهْرِىٌّ ينثنِى أم غصنُ بان ؟ أم قوام دونه صبرىَ بان ؟

صان بالعسّال معسولَ اللّمى وتهادى ، هادماً ما أنا بان...

والقصيدة طويلة فارجع إليها فى الجزء الرابع من خطط على مبارك .

ولقد عرف العطار طريق الوصول إلى محمد على ، فقد كان له — كما يروى صاحب الخطط — (اتصال خاص بسامى باشا وأخويه باقى باك وخير الله باك ، وله عليهم مشيخة ، وبواسطتهم كان يجتمع على المرحوم محمد على باشا فيجله ويعظمه ويعرف فضله) . أما الجبرتى فقد كان يتحاشى أبواب أصحاب السلطان ، وخاصة بعد أن أصيب بمصرع ولده خليل نتيجة لغضب سليمان أغا السلحدار أحد الدهاة فى بلاط محمد على .

وقد يقال — كما قاله الأستاذ خليل شيبوب — إن ائتلاف الأمزجة ، واتفاق الطبائع هو السبب فى توثيق أواصر المحبة بين العطار والجبرتى ، ولكن الذى لا شك فيه أن اختلاف نظريهما إلى معنى الحكم ، وأخلاقية الحاكم قد أدى بهما إلى مذهبين مختلفين ، ووجهتين متباينتين ، وإن كانا قد ظلا عمريهما على حب وصفاء ، فى حالتى السراء والضراء . . .

٨ ـ الحَكَم الذى ترضى حكومته

يلفت النظر فى حوادث سنة ١٢٣٦ هـ ـ سنة ١٨٢٠ م التى ذكرها الجبرتى فى الجزء الرابع من تاريخه، هذا الحادث الذى ندعه مرويًّا بعبارة صاحبه حيث يقول : (وفيه من الحوادث أن الشيخ إبراهيم الشهير بباشا المالكى بالإسكندرية قرر فى درس الفقه أن ذبيحة أهل الكتاب فى حكم الميتة لا يجوز أكلها. وما ورد من إطلاق الآية فإنه قبل أن يغيروا ويبدلوا فى كتبهم . فلما سمع فقهاء الثغر ذلك أنكروه واستغربوه . ثم تكلموا مع الشيخ إبراهيم المذكور وعارضوه . فقال : أنا لم أذكر ذلك بفهمى وعلمى ، وإنما تلقيت ذلك عن الشيخ على الميلى المغربى ، وهو رجل عالم متورع موثق بعلمه . ثم إنه أرسل إلى شيخه المذكور بمصر يعلمه بالواقع . فألف رسالة فى خصوص ذلك وأطنب فيها ؛ فذكر أقوال المشايخ والخلافات فى المذاهب . واعتمد قول الإمام الطرشوشى فى المنع وعدم الحل . وحشا الرسالة بالحط على علماء الوقت وحكامه ؛ وهى نحو الثلاثة عشر كراسة (كذا) ، وأرسلها إلى الشيخ إبراهيم ، فقرأها على أهل الثغر ، فكثر اللغط والإنكار ، خصوصاً وأهل الوقت أكثرهم مخالفون للملة . وانتهى الأمر إلى الباشا ؛ فكتب مرسوماً إلى كتخدا بيك بمصر ؛ وتقدم إليه بأن يجمع مشايخ الوقت لتحقيق المسألة ، وأرسل إليه بالرسالة أيضاً المصنفة . فأحضر كتخدا بيك المشايخ ، وعرض عليهم الأمر ؛ فلطف الشيخ محمد العروسى العبارة ، وقال : الشيخ على الميلى رجل من العلماء تلقى عن مشايخنا ومشايخهم ، لا ينكر علمه وفضله ، وهو منعزل عن خلطة الناس . إلا أنه حاد المزاج ، وبعقله بعض خلل ، والأولى أن نجتمع به ونتذاكر فى غير مجلسكم ، ونهى بعد ذلك الأمر إليكم . فاجتمعوا فى ثانى يوم ، وأرسلوا إلى الشيخ على يدعونه للمناظرة ، فأبى عن الحضور ؛ وأرسل الجواب مع شخصين من مجاورى المغاربة يقولان إنه لا يحضر مع الغوغاء ، بل يكون فى مجلس خاص يتناظر فيه مع الشيخ

محمد بن الأمير . بحضرة الشيخ حسن القويسنى ، والشيخ حسن العطار فقط ، لأن ابن الأمير يناقشه ويشن عليه الغارة! فلما قالا ذلك القول تغير ابن الأمير وأرعد وأبرق ، وتشاتم بعض من بالمجلس مع الرسل ، وعند ذلك أمروا بحبسهما فى بيت الأغا ، وأمروا الأغا بالذهاب إلى بيت الشيخ على وإحضاره بالمجلس ولو قهراً عنه . فركب الأغا وذهب إلى بيت المذكور ، فوجده قد تغيب ، فأخرج زوجته ومن معها من البيت ، وسمر البيت! فذهبت إلى بيت بعض الجيران ! ثم كتبوا عرضاً محضراً وذكروا فيه بأن الشيخ على على خلاف الحق ، وأبى عن حضور مجلس العلماء والمناظرة معهم فى تحقيق المسألة ، وهرب واختفى لكونه على خلاف الحق ! ولو كان على الحق ما اختفى ولا هرب . والرأى لحضرة الباشا فيه إذا ظهر ، كذلك فى الشيخ إبراهيم باشا السكندرى . وتمموا العرض وأمضوه بالختوم الكثيرة ، وأرسلوه إلى الباشا . وبعد أيام أطلقوا الشخصين من حبس الأغا ، ورفعوا الختم عن بيت الشيخ على ، ورجع أهله إليه . وحضر الباشا — يعنى محمدعلى — إلى مصر فى أوائل الشهر ، ورسم بنفى الشيخ إبراهيم باشا إلى بنى غازى . ولم يظهر الشيخ على من اختفائه . . .)

هذا الخبر الذى رواه الجبرتى يحمل دلالات كثيرة ، وقد يستنبط القارئ منه أشياء متنوعة تتصل بحرية الرأى ، ولغط العوام ، وخصومات العلماء ، وسطوة الحكام ، ورعاية الاعتبارات ، وتلطيف الفتن . . . ولكن الذى يهمنا منه هو رضا الشيخ على الميلى المتهم بأن يكون الشيخ حسن العطار أحد الحكمين فى هذه المسألة ، وثانى القاضيين فى مجلس المناظرة ، وأولهما الشيخ حسن القويسنى . فاختيار العالم المتهم لهذين الحكمين هو دليل على اطمئنانه إليهما ووثوقه من مناصرتهما للحق ، وعدم ميلهما إلى الهوى . وتلك شهادة من عالم محقق لعالمين يراهما — وهو فى موضع الاتهام — أهلاً للثقة ، وموضعاً للعدالة . وقد اختارهما صاحبنا ليخففا من حدة الشيخ الأمير فى المناقشة ، فكأنهما صمام الأمن الذى به يستطيع أن يناقش خصمه فى هدوء ، ويجادله فى اطمئنان . وقد حدثت هذه الحادثة والشيخان حسن العطار وحسن القويسنى ليسا إلا مجرد عالمين من علماء

الأزهر ، ولم يكن واحد منهما قد وصل إلى مشيخة الأزهر بعد . وفى هذا دلالة على المكانة العلمية وعلى الحيدة التى كان يتمتع بها هذان العالمان .

وليس فى هذا الاختيار من العالم المتهم دلالة على رأى العطار والقويسنى فى الحكم على ذبيحة أهل الكتاب ، وهل هى جائز أكلها أم لا يجوز ؟ فقد يكون رأيهما مخالفاً لرأيه ، ولكنه دلنا على أن حسن العطار وحسن القويسنى أهل لأن يطمأن إليهما ، ويوثق بهما. وتلك شهادة تدلنا على مكانة الشيخ حسن العطار فى عصره ، ومنزلته من مخالفيه وموافقيه على السواء . . .

٩ ــ قارئ الكتب الواعى

لم يصل حسن العطار إلى تلك الحصيلة الواسعة من المعارف البشرية فى عصره إلا بما حصله من قراءة الكتب . فإن شيوخه وأساتذته فى الأزهر لم يعطوه من المعارف وثراء الفكر قدر ما أعطته الكتب الكثيرة التى قرأها وعلق عليها ، وأعاد قراءتها . فقد كان صاحبنا قارئاً ممتازاً ، وكان للكتب عنده محل عظيم من نفسه . وما عرف عنه أنه ضن على كتاب يقتنيه بمال مهما ارتفع سعره ، على الرغم من عدم تكاثر الأموال بين يديه . وتدلنا أخباره المنبثة هنا وهناك فى تضاعيف مصنفاته على مبلغ عنايته بالكتب التى يسمع بها ، وشدة رغبته فى الحصول عليها . ففى الجزء الثانى من كتابه « جمع الجوامع » يسوقه الحديث إلى كتاب « ترشيح التوشيح » ، فيقول عنه : (وهذا الكتاب من أجل كتب المصنف ، وقعت إلى نسخته وأنا بمدينة دمشق الشام ، ومقدمة ذلك الكتاب بخطه ، فاشتريتها . . .) [1]

وما كان العطار ليسافر دون أن يستصحب الأسفار والكتب فى أسفاره ورحلاته . ويذكرلنا فى مقدمة حاشيته على شرح الأزهرية للشيخ خالد أنه لما خرج فاراً من مصر إلى البلاد الرومية ، كما سبق الحديث عن ذلك فى صفحة ٢١

(١) جمع الجوامع : لحسن العطار ج ٢ ص ٣٠١ .

استصحب مسودة هذا الكتاب وغيرها من بعض كتبه . ولم يكن العطار يكتفى بقراءة الكتب التى تقع فى يده ، بل كثيراً ما كان يطرز هوامشها بتعليقاته وكتاباته . ويؤيد هذه الحقيقة ما ذكره عنه الشاعر الشيخ محمد شهاب الدين ، ونقله عنه على مبارك من أن الشيخ حسن العطار (كان آية فى حدة النظر وشدة الذكاء . ولقد كان يزورنا فى بعض الأحيان ، فيتناول الكتاب الدقيق الخط الذى تعسر قراءته فى وضح النهار ، فيقرأ فيه على نور السراج وهو فى موضعه . وربما استعار منى الكتاب فى مجلدين : فلا يلبث عنده إلا الأسبوع أو الأسبوعين ، ويعيده إلىّ ، وقد استوفى قراءته ، وكتب فى طرره على كثير من مواضعه)[1] . فهو لا يبالى أن يعلق على هوامش الكتاب وطرره حتى ولو كان مستعاراً وليس فى ملك يده . ويقرر لنا هذا الخبر سرعة حسن العطار فى القراءة مع الاستيعاب والفهم . فالكتاب الضخم فى مجلدين لا يأخذ منه أكثر من أسبوعين لقراءته واستيفاء موضوعاته والتعليق على هوامشه .

وتدلنا الرسالة التى بعث بها حسن العطار إلى الشيخ مصطفى بكرى الساعاتى [2] من أدباء وقته على مبلغ اتساع دائرة قراءة الرجل وكثرة محفوظه من كتب الأدب والتاريخ والأخبار والمحاضرات وما إليها ، ففيها إشارات إلى أخبار أدبية طريفة تدل على أن الرجل كان مطلعاً على كثير من كتب الأدب والتاريخ والشعر .

ولم يكتف العطا بالكتب العربية ، بل اتجه إلى الكتب التى ترجمت فى أوائل عصر النهضة فى القرن التاسع عشر ، فقرأها ، وأفاد منها ، وجمع بها بين ثقافة الشرق وثقافة الغرب . ويشهد له تلميذه الشيخ رفاعة الطهطاوى بهذا فيقول عنه : (وكان يطلع دائماً على الكتب المعربة من تواريخ وغيرها)[3] . بل يتحدث العطار نفسه عن قراءاته واطلاعاته على الكتب فيقول : (وقع فى زمننا

---

(١) الخطط التوفيقية — ج ٤ ، ومعجم المطبوعات العربية لسركيس ص ١٣٣٦ .
(٢) مجلة روضة المدارس عدد ١٨ سنة ١٢٨٧ هـ ص ٢٥ ، وعدد ١٩ ص ٢٤ .
(٣) مباهج الألباب المصرية لرفاعة الطهطاوى .

أن جلبت كتب من بلاد الإفرنج ، وترجمت باللغة التركية والعربية ، وفيها أعمال كثيرة ، وأفعال دقيقة ، اطلعنا على بعضها . وقد تتحول تلك الأعمال بواسطة الأصول الهندسية والعلوم الطبيعية من القوة إلى الفعل)[1] .

ويفسر لنا نهم العطار بالقراءة وتحصيل المعارف كلفه بالمعرفة وحبه الأصيل للعلم . ويؤكد لنا الأستاذ سامى بدراوى (أن مفتاح شخصية العطار يكمن فى هذا الحب للعلم) ، كما يقرر (أن كلفه بالمعرفة والتعلم هو الذى جعله فذاً بين أقرانه تلميذاً وأستاذاً ، وهو الذى صاحبه فى كافة مراحل حياته ، وجعله حدثاً فى عصره)[2] . والحق أن الشيخ حسن العطار كان حدثاً فى عصره ، وكان ظاهرة قليلة النظير ، بل نادرة المثيل .

١٠ – ثنائى مرح . . . وثلاثى متلازم . . .

تصادفنا فى سيرة الشيخ حسن العطار شخصيتان كبيرتان ربط الود بينهما وبينه بأوثق رباط ، وهما شخصية عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ ، وإسماعيل الخشاب الشاعر الخفيف الروح . ويروى لنا الجبرتى فى حوادث سنة ١٢٣٠هـ – سنة ١٨١٥ م نبأ وفاة الشاعر الخشاب ، ويحدثنا عن هذه الصلة قائلاً : (وبعد أن رجع صاحبنا العلامة الشيخ حسن العطار من سياحته ، مازج المذكور – يعنى الشاعر الخشاب – وخالطه . ورافقه ووافقه ولازمه ، فكانا كثيراً ما يبيتان معاً ، ويقطعان الليل بأحاديث أرق من نسيم السحر ، وألطف من اتساق نظم الدرر . وكثيراً ما كانا يتنادمان بدارى ، لما بينى وبينهما من الصحبة الأكيدة ، والمودة العتيدة ، فكانا يرتاحان عندى ، ويطرحان التكلفات التى هى على النفس شديدة ، ويتمثلان بقول من قال :

( ) جمع الجوامع لحسن العطار جزء ٢ ص ٦٤١ .

(٢) مجلة المجلة عدد مارس سنة ١٩٦٥ . ص ٣٢ .

فيّ انقباض ووحشة فإذا رأيت أهل الوفاء والكرم
أرسلت نفسي على سجيتها وقلت ما قلت غير محتشم!

ثم يتجاذبان أطراف الكلام ، فيجولان فى كل من فن من الفنون الأدبية ، والتواريخ والمحاضرات ، فتارة يتشاكيان تغير الزمان ، وتكدر الإخوان ، وأخرى يترنمان بمحاسن الغزلان ، وما وقع لهما من صد وهجران ، ووصل وإحسان ! فكانت تجرى بينهما منادمات أرق من زهر الرياض ، وأفتك بالعقول من الحدق المراض ؛ وهما حينئذ فريدا وقتهما ، ووحيدا مصرهما ، لم يعززا فى ذلك الوقت بثالث ، إذ ليس ثم من يدانيهما فضلاً عن مساواتهما فى تلك الشئون التى أربت على المثانى والمثالث !) [1]

ولا نجد كلاماً أصدق فى وصف صحبة هذا الثالوث من كلام الجبرتى المؤرخ ولا أدق منه وألطف ! والواقع أن الجبرتى يتواضع هنا حين يذكر عن العطار والخشاب الشاعر أنهما لم يعززا بثالث فى زمانهما ؛ فقد كان الجبرتى نفسه ثالث هذه الجماعة المتلاقية على الحب والوفاء والألفة والسمر والأدب . وتدلنا شهادة مؤرخنا الجبرتى لحسن العطار على روح هذا العالم الأديب الذى كان يذوب رقة ولطفاً ، والذى كان يجارى الشاعر الخشاب فى غزلياته ومعابثاته ، ومفاكهاته ، بل فى مجونياته ! وقد أسقط الثلاثة الكلفة بينهم فى مجلسهم الخاص هذا ، وفى أسمارهم ومنادماتهم ومطارحاتهم .

والواقع أن الشاعر إسماعيل الخشاب كان أكثر الثلاثة ظرفاً ، وأميلهم إلى الدعابة فى انطلاق كثير . . . وكان فيه براعة فى اجتذاب قلوب مجالسيه ومحدثيه ، حتى لقد كان أمراء مصر وبكواتها وتجارها وعلماؤها يرتاحون لمنادمته ، ويتنقلون على طيب مفاكهته ، وحسن مخاطبته ، ولطف عبارته . وكان فيه كذلك قدرة عجيبة على استحضار المناسبة اللائقة بالمجلس ، وعلى مخاطبة الحضور على قدر عقولهم ؛ فيجانس الناس ويشاكلهم على قدر اختلاف أهوائهم . . .

(١) تاريخ الجبرتى — طبعة بولاق — جـ ٤ ص ٢٣٩ .

ولقد بلغ من وفاء الشيخ حسن العطار لصديقه إسماعيل الخشاب الشاعر أنه هو الذى جمع شعره وأظهر ديوانه ، كما تشير إلى ذلك عبارة فى الصفحة الثانية من الديوان المطبوع بالجوائب[1] ، وكما يذكر الجبرتى فى ترجمته للخشاب .

وكثيراً ما كان هؤلاء الثلاثة يتنادون إلى الرياض ، ويتداعون إلى المتنزهات استجلاباً للأنس ، واطراحاً للهم . فنرى الخشاب الشاعر يدعو الجبرتى المؤرخ إلى متنزه ، قائلاً : —

يا سيدى يا سندى ويا عريق المحتد
ويا أخا منظـره جلاءُ عين الأرمد
أدعوك تأتى مسرعاً وبالذاك من يد ؟
نؤم قصراً جامعاً كل المعانى الشرد
نصغى إلى مزهر من أضحى فريد البلد !

وكثيراً ما كانت تقوم المعارضات الشعرية بين أعضاء هذا الثالوث الظريف. فحين نظم حسن العطار موشحته التى يقول فيها على طريقة الأندلسيين :

أما فؤادى فعنك ما انتقلا فلم تخيرت فى الهوى بدلا ؟ فاعجب
يا معرضا عن محبه الدنف ومغرماً بالجمال والصلف
ومن به زاد فى الهوى شغفى أما كفى يا ظلوم ما حصلا ؟
حتى جعلت الصدود والملا مذهب !
فتش فؤادى فليس فيه سوى شخصك يأيها المليح ثوى
قد ضل قلبى لسكنه ، وغوى وهكذا من يحب معتدلا
لم يلق إلا تأسفاً وقلى مشرب ...

(١) ديوان الخشاب : طبع الجوائب ص ٢ من الديوان أو ٣٤٥ من المجموع الذى طبعه فارس الشدياق مشتملا على دواوين أخرى لابن الوردى وغيره .

حين نظم العطار هذه الموشحة التى منها هذه الأبيات عارضه الشاعر الخشاب بموشحة مطلعها :

يهتز كالغصن ماس معتدلا أطلع بدراً عليه قد سدلا غيهب

ولا شك أن العطار كان له شعر كثير فى الغزل ، كما كان له ديوان — كما يذكر الجبرتى[١] . ولا نعلم الآن مصير هذا الديوان المخطوط وأين مكان وجوده ، ولكنا نعلم يقيناً أن حسن العطار ذكر فى رسالته إلى الشيخ مصطفى بكرى الساعاتى أنه ضاع منه بدمشق كراس من ديوان شعره[٢] . ولعله — على جلال قدره فى العلم — تحرج من شعر غزله وشبابه فزعم أنه ضاع منه كراس فى دمشق .

ولقد كان الجبرتى المؤرخ أكثر الثلاثة جداً ، ولكن العطار لم ير فى مجالس الأدب والظرف والمنادمة من حرج ما دام الدين متبوعاً ، وعلم الشريعة مصوناً . أما الخشاب فكان أكثر الثلاثة ميلاً إلى الإسراف فى المضاحكات والمطارحات واصطياد اللذات .

ولما مات الخشاب الشاعر لم يجد حسن العطار فى الجبرتى من يسد مسده ، ويملأ فراغه ، فبقى — كما يقول مؤرخنا — فريداً عمن يشاكله ويناشده ويتجارى معه ، فسكت عن الشعر والنثر الأدبى جملة ، وانقطع عن مجالس السمر والمنادمة ، وانصرف إلى تقرير العلوم الفقهية والنحو ، والتصنيف فى مقررات الأزهر ما بين حواش وشروح ومتون . . .

١١ — وَصّاف الأوبئة

لقد كانت مصر ، بل كان الشرق العربى كله ، فى العصر الذى شهد مولد حسن العطار مباءة لكثير من الأوبئة ومنها الطاعون ، الذى لفت أنظار

---

(١) تاريخ الجبرتى : طبعة بولاق جـ ٤ ص ٢٤١ .

(٢) روضة المدارس عدد ١٨ ص ٢٨ .

الرحالين الأجانب فتحدثوا عنه فى رحلاتهم ، والذى كان يحصد الأرواح حصداً . وكان وباء الطاعون يتكرر حدوثه كل بضع سنوات كما لاحظ ذلك الرحالة ڤولنى . ولقد شهد حسن العطار فى حياته الطويلة بضعة من الطواعين ؛ أولها الطاعون الذى حدث سنة ١٢٠٥ هـ — ١٧٩١ م . وأشار إليه الجبرتى فى خلال ترجمته للشيخ محمد مرتضى الزبيدى صاحب « تاج العروس » ، وقد مات الزبيدى مطعوناً فى ذلك الوباء . وثانيها الطاعون الذى حدث سنة ١٢٠٦ هـ — سنة ١٧٩٢ وقد أشار إليه مؤرخنا فى خلال ترجمته للشيخ محمد الصبان النحوى المشهور . أما ثالث الطواعين التى شاهدها العطار فهو الذى حدث فى عهد الحملة الفرنسية سنة ١٨٠٠ ، وقد وقع بمصر والشام ، وكان أسوأ نتائجه وأشد فتكاته بالصعيد . وينقل لنا الجبرتى المؤرخ وصفاً لهذا الوباء من رسالة بعث بها حسن العطار إليه من الصعيد حينما كان فاراً من وجه الفرنسيين فى القاهرة . ولم يكتف الجبرتى بنقل هذه الرسالة الوصفية فى تاريخه المشهور ، بل نقلها كذلك فى كتابه الآخر « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » الذى ألفه بالمشاركة مع حسن العطار . وتصف لنا رسالة العطار هجوم البلاء ، وإغلاق الأسواق ، وندرة الأكفان ، وكثرة الموتان ، وعدم وجود المغسلين والمكفنين وحاملى النعوش . . . وانشغال الناس بتجهيز الموتى ، وتردد صيحات النائحين والباكين ، وتعطل بيوت الله من الأذان والمؤذنين ، وجفاف الضروع ، وتعطل الزروع ، وهبوب حصيد النبات بفعل الرياح لفقدان الحاصدين . . . ولا بأس هنا أن نذكر هذه الرسالة المؤثرة حيث قال مخاطباً صديقه الجبرتى : (ونعرفكم يا سيدى[1] أنه وقع فى قطر الصعيد طاعون لم يعهد ولم نسمع بمثله ، وخصوصاً ما وقع منه بأسيوط . وقد انتشر هذا البلاء فى جميع البلاد شرقاً وغرباً ، وشاهدنا منه العجائب فى أطواره وأحواله . وذلك أنه أباد معظم أهل البلاد . وكان أكثره فى الرجال ، سيما الشبان والعظماء وكل ذى منقبة وفضيلة ، وأغلقت الأسواق ، وعزت الأكفان ، وصار المعظم من الناس بين ميت ومشيع ومريض وعائد !

(١) تاريخ الجبرتى — طبعة لجنة البيان العربى — جـ ٥ ص ٢٤١ .

حتى إن الإنسان لا يدرى بموت صاحبه أو قريبه إلا بعد أيام . ويتعطل الميت فى بيته من أجل تجهيزه ، فلا يوجد النعش ولا المغسل ، ولا من يحمل الميت إلا بعد المشقة الشديدة ، وأن أكبر كبير إذا مات لا يكاد يمشى معه — أى يسير فى جنازته — ما زاد على عشرة أنفار تكثرى ! وماتت العلماء والقراء والملتزمون والرؤساء وأرباب الحرف . ولقد مكثت شهراً بدون حلق رأسى لعدم الحلاق ! وكان مبدأ هذا الأمر من شعبان ، وأخذ فى الزيادة فى شهرى ذى القعدة والحجة ، حتى بلغ النهاية القصوى ، فكان يموت كل يوم من أسيوط خاصة زيادة على الستمائة . وصار الإنسان إذا خرج من بيته لا يرى إلا جنازة أو مريضاً أو مشتغلا بتجهيز ميت ! ولا يسمع إلا نائحة أو باكية ! وتعطلت المساجد من الأذان والإمامة ، لموت أرباب الوظائف ، واشتغال من بقى منهم بالمشى أمام الجنائز والسبح والسهر . وتعطل الزرع من الحصاد ، ونشف على وجه الأرض ، وأبادته الرياح لعدم وجدان من يحصده . وعلى التخمين أنه مات الثلثان من الناس ، هذا مع سعى العرب فى البلاد بالفساد والتخويف ، بسبب خلو البلاد من الناس والحكام . . . إلى أن قال : ولو شئت أن أشرح لك يا سيدى ما حصل من أمر الطاعون لملأت الصحف . . . .) ولقد لقى الفرنسيون من العنت فى مكافحة هذا الوباء — وخاصة بالقاهرة حيث جموع جيشهم ورجال حملتهم — ما لم يغفله مؤرخو عهد الحملة ، وخاصة الشيخ عبد الرحمن الجبرتى . كما كانوا يستعدون منذ حطوا رحالهم بمصر لمنع انتشار الأوبئة واتخذوا من وسائل الحيطة ما يذكره مؤرخنا فى حوادث سنة ١٢١٣ هـ . ولقد أصدروا الأوامر والمنشورات مراراً (بعدم المخالطة مع النساء المشهورات ، لأنهن الواسطة الأولى لتشويش الطاعون . . .)[1] فلما بدأ ظهور الوباء سنة ١٨٠٠ (انزعج الفرنساوية من ذلك ، وجردوا مجالسهم من الفرش ، وكنسوها وغسلوها ، وشرعوا فى عمل كرنتيلات — أى حجر صحى — ومحافظات . . .)[2] ثم زادوا فى وسائل المكافحة

---

(١) تاريخ الجبرتى — طبعة اللجنة جـ ٥ ص ٤٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٨ .

فأمروا بحرق الثياب التى على أجساد الموتى من الوباء ، وحصل بذلك للناس انزعاج عظيم . ومن غرائب الاتفاق أن مراد بك المملوك المصرى فى عهد الحملة قد مات بالوجه القبلى على أثر إصابته بالطاعون . على أن عين الوباء لم تغفل عن الفرنسيين المعتدين ؛ فقد روى الجبرتى أنه كان يموت كل يوم من الفرنسيين المقيمين بالقلعة الثلاثون والأربعون[١] . ولم يدع مؤرخنا الفرصة تمر دون أن يصور لنا بقلمه الرشيق طريقة دفن الفرنسيين لموتاهم من الوباء[٢] .

ولقد وصف لنا حسن العطار الطاعون الرابع الذى حدث فى مدة حياته سنة ١٨٢٣ م ، وذلك فى نهاية باب التصورات من حاشيته المشهورة على شرح الخبيصى فى علم المنطق . وعهدنا بالعطار أنه يستطرد بذكر حوادث فى خلال موضوعات كتبه ومسائل مصنفاته . وهنا نراه يشير إلى ثلاث حوادث هائلة حدثت بمصر فى سنة ١٨٢٣ ، وهى المطر الشديد الذى هدم مواضع كثيرة وعطل الناس عن قضاء مصالحهم ، والحريق الذى حدث بمخازن البارود فى القلعة ، وأهلك خلقاً كثيراً ، وحيوانات وأمتعة ، وارتجت منه البلاد رجتين نتيجة لانفجار البارود . والطاعون الذى وصفه قائلاً[٣] : (ثم جاء الطاعون ومات من أهل العلم جماعة ، ومرض البعض ، والبعض فر إلى بلاده ، وصار من بقى ما بين عائد مريض ومشيع جنازة ومشغول بخدمة من مرض عنده . والأفكار تكدرت ، والهموم تكاثرت ، والأوهام غلبت . وكان معنا فى ابتداء إقراء الكتاب — يعنى حاشيته فى المنطق — جماعة كثيرة من أذكياء الطلاب ، قلُّوا جداً ، وصارت أفكارهم لذلك الحادث غير قابلة للبحث فى غوامض المسائل المحتاجة لصفاء الفكر ، وعدم شغل البال ، وفكرى أنا أيضاً كذلك ، لتمرض عيالى ، وخوفى على أحبابى ، وحزنى على من مات منهم ، وإشفاقى على المتمرضين . أسأل الله سبحانه اللطف لى ولهم وللمسلمين . . .) .

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٢٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٢٧ .

(٣) حاشية العطار على شرح الخبيصى ص ١٣٨ .

وإذا كان العطار فى طاعون عهد الحملة قد وصف لنا الآثار المادية للوباء، وصورها لنا فى البيت والشارع والحقل ، والمقابر والجنازات والأسواق ، فإنه فى طاعون سنة ١٨٢٣ قد صور لنا الحالة النفسية له ولطلابه . من أثر التمرض والتمريض والخوف والقلق والحزن على الموتى والإشفاق على المتمرضين . . .

ويعد حسن العطار بوصفه لطاعون سنة ١٨٢٣ م المؤرخ الوحيد له ، فلم تشر إليه تقارير العلماء والمؤرخين الأجانب المعاصرين لمحمد على من أمثال البارون دى بوالكمت ، وهود جسون ، ودوهاميل ، وبورنج[١] . كما لم يشر إليه اللواء محمد مختار « باشا » صاحب « التوفيقات الإلهامية » فى حوادث سنة ١٨٢٣ ، بل اكتفى بالإشارة « للحريقة المهولة بالقلعة بمصر » فقد كانت « لشدتها وشهرتها تؤرخ بها العامة مواليدهم[٢] ووفياتهم . . . »

على أن العطار لم ينفرد وحده فى الأدب العربى بوصف الطاعون والوباء ، فقد سبقه إلى ذلك الشاعر الأديب عمر بن الوردى الذى ولد بالمعرة وتوفى بحلب سنة ٧٤٩ هـ ، فله رسالة فى وصف طاعون حدث فى عهده أسماها « رسالة النبا ، عن الوبا » ، وقد حلاها بالمحسنات البديعية المزدحمة على طريقته فى الكتابة ، ولكنه أبدع فى وصف الوباء وطريقة انتشاره ، وكثرة ضحاياه[٣] .

وإذا كان الله ينعم بالبلاء أحياناً ، فإن هذا القول ينطبق على طاعون عهد الحملة الفرنسية فى مدينة عكا ، فقد كان حدوث الطاعون بها من الأسباب التى حملت بونابرت على ترك محاصرتها . فقد كان يموت كل يوم من رجال عسكره خمسون وستون عسكريا . ولا نستنتج نحن ذلك ، ولكنا نأخذه من كلام بونابرت نفسه الذى بعث به من عكا إلى الفرنسيين المقيمين بمصر . . .

---

(١) بناء دولة : للدكتور محمد فؤاد شكرى وزميليه ص ٥٩١ .

(٢) التوفيقات الإلهامية ص ٦٢٠ .

(٣) ديوان عمر بن الوردى — طبع الجوائب — ص ١٨٤ .

١٢ ـ العطار بين مادحيه ورائيه

يظهر تقدير الناس للمرء وهو حى بين ظهرانيهم بمدحهم له وثنائهم عليه . فإن ألسنة الخلق أقلام الحق كما يقولون . ويظهر تقديرهم له بعد وفاته برثائه والتفجع عليه والتعداد لمحاسنه ومآثره . ولن نجد تقدير الرجال فى الأدب العربى إلا بين هذين . ولقد كان الشعراء فى عهد العطار قلة غير مجودة ، ولهذا لم نظفر عندهم بمدائح كثيرة له . وقد يكون مدحه جماعة من النظامين لم تصل إلينا قصائدهم لاعتبارات ، منها أن نظمهم لم يطبع ، وأن دواوينهم لم تنشر . ولقد أشرنا فى باب سابق من هذا الكتاب إلى الصلة بين العطار والشاعر بطرس كرامة اللبنانى ومدح هذا له ببعض الشعر الذى نشره فى ديوانه « سجع الحمامة » . على أن هناك من تلاميذ العطار نبغ شاعر مشهور فى عصره هو محمد شهاب الدين الذى حاول أن يكون الشاعر الرسمى للدولة فى عهده ونجح فى هذا . وقد ظل هذا الشاعر الأديب وفيًّا لشيخه مدى حياته ، وعبر عن هذا الوفاء بمدحتين نشرا فى ديوانه المطبوع سنة ١٢٧٧ هـ . ومدحة شهاب الدين الأولى للعطار ميمية القافية ، وقد جرى فيها على طريقته التقليدية فى الشعر ، وافتتحها بالغزل محاكاة للقدماء ، وتخلص من أبيات الغزل الطويل إلى صفة الممدوح قائلاً :

قلت ياذا العذول دعنى وجهلى ... حسبك البر بحر فيض العلوم
مركز الفضل من غدا كل قطر ... مستمدا من خطه المستقيم
شيخ كل الشيوخ مولى الموالى ... صفوة الأصفيا ، مزيل الهموم
«حسن» الذات والصفات جميعاً ... مغضب المبغضين ، مرضى الخصوم
هو «عطارنا» الذى من شذاه ... كان عطر الهدى ذكى الشميم !

ولاحظ هنا الصناعة اللفظية والحليات البديعية ومصطلحات العلوم والبديع فى قوله : البر ، والبحر ، والفيض . وقوله : مركز ، وقطر ، وخط مستقيم وهى

مصطلحات الهندسة ، والمناسبة بين عطار ، وشذا التى هى فوح العطور . . .

أما مدحة الشهاب الثانية للعطار فقد نظمها حين تعصب عليه بعض الشيوخ لمسألة لم يذكرها لنا الشاعر الذى أطال فى القصيدة ، وافتتحها أيضاً بالغزل وخلص إلى مدح العطار قائلاً :

هو فى سماء العلم بدر كامل ما إن يصاب تمامه بسرار
هو فى المعارف صاحب الحال الذى يمتاز عند تنكر الأخبار
هو فى الزمان السعد والعز الذى تعتز مصر به على الأمصار

ولاحظ هنا أيضاً مصطلحات النحو فى قوله : المعارف ، وصاحب الحال ، وتنكر ، وأخبار . . .

وهناك شاعر مصرى مشهور فى عصره اسمه على الدرويش ، وقد أدرك العطار ومدحه حينما كان شيخاً للجامع الأزهر بقصيدة رائية مثبتة فى ديوانه[1] ، وقد جرى الناظم المادح هنا على طريقة أهل عصره فى الافتتاح بالغزل والتخلص إلى المدح ، وملأ مدحته بالمحسنات البديعية والصنعة المتكلفة ، وخلص إلى مدح ممدوحه قائلاً :

ورأى الأقاحى عطر ثغرك فانثنى متعجبـــاً يثنى على « العطار »
يزهو على الأعصار عجباً عصره وتتيه مصر به على الأمصار

ولاحظ الشطر الأخير هنا فهو يكاد يكون بألفاظه الشطر الأخير من أبيات الشاعر شهاب الدين . على أن العطار الذى أقل الشعراء المادحون فى مدحه هو العطار الذى أقل الشعراء الراثون فى رثائه . حتى القصيدة الطويلة التى رثاه بها تلميذه الشاعر شهاب الدين ضاعت من ناظمها ! فأثبت فى ديوانه ستة أبيات فقط ممهداً لها بالعبارة التالية : (وكنت قد رثيت العلامة الشيخ العطار ـــ قدس

---

(١) ديوان الأشعار بحميد الأشعار للشاعر على الدرويش ص ١٣٨ .

سره—بقصيدة ضاعت مسودتها ، وليس فى مخيلتى سوى أبيات قليلة مطلعها قولى :

سله أمنا فهو معطى الأمان ... رب أمر حال دون الأمانى
بينما الإنسان يرجو بعيدًا ... إذ تدانى منه داعى التدانى
لم تزل آمالنا فى ازدياد ... مع أن العمر فى نقصان
والمنايا حكمها فى البرايا ... بالبلايا دائم الجريان
يا خليلى خلنى وشجونى ... إن ما بى من شجون كفانى !
كل شىء هالك جل ربى ... فتدبر من عليها فانى[1]

على أن العطار — رحمه الله — أسعد حظًا فى الرثاء من غيره من العلماء الأعلام الذين ماتوا ولم يرثهم أحد . فقد مات قبله بقليل العلامة المشهور السيد محمد مرتضى الزبيدى شارح القاموس المحيط (فلم يرثه أحد من الشعراء) كما يروى لنا الجبرتى فى تاريخه . . .

١٣ ـ العطار فى تقدير الرجال

لقد تناول كثير من مؤرخى الأدب وكتاب السير الشيخ حسن العطار بالحديث عنه أو الترجمة له أو التعريف به . وجاء الحديث عنه إما أصلاً فى صلب بحث أو مقال ، وإما عرضاً فى خلال كتاب . ولم يظهر عن العطار منذ انتقل إلى جوار ربه دراسة قائمة بذاتها فى كتاب مستقل خاص به . وبهذا كان كتابنا هذا أول كتاب مستقل يظهر فى المكتبة العربية عن الشيخ حسن العطار .

ومن الكتاب والباحثين الذين كتبوا عن العطار من اكتفوا بعرض طرف من سيرته ، أو نتف من أخباره دون إبداء رأى فيه ، أو تقدير له ولمكانته فى النهضة

(١) ديوان محمد شهاب الدين — ص ٣٢٩ .

الحديثة التى بدأت فى القرن التاسع عشر . ومنهم من أضاف إلى الأخبار عنه رأياً فيه وتقويماً له . وسنعرض فى هذا الفصل آراء الكتاب فى الرجل منذ عصره حتى زماننا هذا . وأول من يصادفنا هنا المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى صديق العطار ورفيقه ، فقد قال فى معرض ترجمته للشيخ محمد عرفة الدسوقى : (وقد رثاه أمثل من عنه أخذ ، وأكمل من له تتلمذ ، صاحبنا العلامة ، وصديقنا الفهامة ، المنفرد الآن بالعلوم الحكمية ، والمشار إليه فى العلوم الأدبية ، صاحب الإنشاء البديع ، والنظم الذى هو كزهر الربيع ، الشيخ حسن العطار)[١] . ويقول عنه أحد تلاميذه الأديب المصرى مصطفى بكرى الساعاتى : (. . . العالم المفرد ، والعلم الأوحد ، رب الشعر والقريض ، والفنون التى هى كالروض الأريض ، ذو التآليف الشائقة ، والتحقيقات الفائقة ، أوحد الفضلاء . . . المتفنن فى علوم لا يعرفها إلا أفراد قليلة ، الحائز قصب السبق فى مضمار كل فضيلة ، شيخنا بل وشيخ كل من نظم ونثر ، وقرأ العلوم وحرر ، أبو السعادات حسن ابن محمد الشهير بالعطار)[٢] . ويقول عنه تلميذه رفاعة الطهطاوى : (كان له مشاركة فى كثير من العلوم ، حتى فى العلوم الجغرافية . . . وكان يطلع دائماً على الكتب المعربة من تواريخ وغيرها ، وكان له ولوع شديد بسائر المعارف البشرية)[٣] . ويقول عنه على مبارك : (إنه اشتغل بغرائب الفنون والتقاط فوائدها) . أما مؤرخ الرجال للقرن الثالث عشر : الشيخ عبد الرزاق البيطار ، فيقول عنه : (ولقد انفرد فى علم الأدب ، وأجاد فيما نظم ونثر ، وأحاطت به الفنون إحاطة الهالة بالقمر . . .)[٤] . ويقول عنه مؤرخ الصحافة العربية فيليب طرازى : (وقد خلف عدة تآليف فى الأصول والنحو والبيان والمنطق والطب . . . وكان هذا الشيخ عالماً بالفلكيات ، وله فى ذلك رسائل فى كيفية العمل بالأسطرلاب والربعين المقنطر والمجيب والبسائط . وكان يحسن عمل المزاول الليلية

---

(١) الجبرتى جـ ٤ ص ٢٣٢ .
(٢) روضة المدارس – العدد ١٨ ص ٢٧ .
(٣) مباهج الألباب المصرية ص ٣٧٥ .
(٤) حلية البشر – جـ ١ ص ٤٨٩ .

والنهارية ، وقد اشتهر أيضاً الشيخ العطار بفنون الأدب والشعر . .)[١] . ويقول عنه الدكتور طه حسين وزملاؤه فى تأليف « المنتخب » : (. . وكان مع علمه كاتباً شاعراً بليغاً)[٢] . أما الأستاذ محب الدين الخطيب فيصفه بقوله : (وكان متضلعاً فى العلوم الرياضية ، فضلاً عن العلوم الشرعية والعربية)[٣] . ويتحدث عنه مؤرخنا عبد الرحمن الرافعى فى معرض ترجمته للشيخ رفاعة فيقول : (وكان الشيخ حسن العطار من علماء مصر الأعلام ، وامتاز بالتضلع فى الأدب وفنونه والتقدم فى العلوم العصرية ، وكان هذا نادراً بين علماء الأزهر)[٤] . ويصفه أستاذنا الشيخ أحمد الإسكندرى وزملاؤه فى تأليف « المفصل » بقولهم : (هو العالم الكاتب الشاعر ، أكب على كتب الأدب فأصاب منها حظاً عظيما ، وأجاد الشعر والنثر كليهما)[٥] . ويصور الأديب خليل شيبوب تطلعات العطار واتساع أفقه بقوله : (وقد جاب الأقطار الشرقية ، وعاد إلى مصر وفى عينيه آفاق جديدة ، وفى فؤاده صور وعبر . فهو يحدث عن دمشق والقسطنطينية ، والجبال والصحراء ، والأودية والبحار ، ولكن نفسه لم تكن مستريحة إلى حال الخمول التى رأى عليها الشرق وأهله وخنوعهم إلى الحكام المستبدين ، وانصراف العلماء إلى المنفعة والمصلحة[٦] . . .) . ويصفه الدكتور عبد الحميد يونس بقوله : (وكان رجلاً شاعراً ناثراً مستنيراً اشتهر بغزارة علمه . . .)[٧] ، وينتقد الأستاذ عمر الدسوقى تكلفه وتعمده للسجع فى نثره ، ولكنه يجمل تقويمه بقوله : (على أن الشيخ العطار — مع هذا — من أحسن كتاب عصره وشعرائه ديباجة ، وأقلهم تكلفاً)[٨] . ويشيد المرحوم الأستاذ عبد المتعال الصعيدى

(١) تاريخ الصحافة العربية جـ ١ . ص ١٢٩ .
(٢) المنتخب — لطه حسين وزملائه جـ ٢ ص ٤٧٩ .
(٣) كتاب : الأزهر — لمحب الدين الخطيب — ص ٣٧ .
(٤) عصر محمد على ص ٤٧٢ .
(٥) المفصل لأحمد الأسكندرى ورفاقه جـ ٢ ص ٣٣٥ .
(٦) عبد الرحمن الجبرتى — سلسلة اقرأ — لخليل شيبوب ص ١٠٧ .
(٧) الأزهر — لعبد الحميد يونس وعثمان توفيق — ص ١٣٢ .
(٨) فى الأدب الحديث — لعمر الدسوقى — جـ ١ — ص ٤٨ .

بموقف العطار من الدعوة إلى العلوم العصرية فيقول : (ولا شك أن موقف الشيخ حسن العطار من العلوم الرياضية بشكلها الجديد يدل على ما كان يمتاز به من مرونة عقلية ودينية ، وعلى أنه كان فى هذا أحسن حالاً من أهل الأزهر الذين حاربوها بعده باسم الدين . . .)[١] ولكنه ينتقد موقف العطار الضعيف وصوته الخافت الذى لم يستطع الجهر به ، بل كان يرسله فى مواضع محبوءة من أحد كتبه فى الفقه . أما الدكتور حسين فوزى النجار فيقدره بقوله : (وكان العطار جوّاب آفاق ، محبًّا للأسفار . فساح فى البلاد العربية ، وأقام فى بعضها زمناً ، وارتحل إلى تركيا ولبث بها حيناً ، فأفاده الترحال قدرة على التأمل ، كما أفاده اتصاله بعلماء الحملة الفرنسية معرفة بسر نهضتهم وقوتهم . . .)[٢] .

ويلخص لنا الأديب الباحث سامى بدراوى رأيه فى العطار بقوله : (والخلاصة أن الشيخ حسن العطار كان له موقف متكامل من مشكلات مجتمعه الثقافية والتعليمية والأدبية والسياسية . وقد حاول أن يشخص هذا الواقع ويحدد جوانب الضعف فيه ، كما نادى بضرورة تغييره ورسم برنامج هذا التغيير . وأخيراً أنه عهد بأمانة هذا التغيير ومستقبله إلى تلاميذه الذين يعتبر رفاعة رافع الطهطاوى نموذجهم الفذ الذى بلغت حركة العطار على يديه أوجها)[٣] . ويوجز لنا المستشرق كراتشكوفسكى تقديره للعطار بقوله : (ولم يكن الشيخ حسن العطار عالماً فحسب ، بل وشاعراً أيضاً . .)[٤] . ويجمل لنا المستشرق فولرز رأيه فى العطار فى الفصل الذى كتبه فى دائرة المعارف الإسلامية ، مادة الأزهر ، فيقول : (وكان العطار رجلا مستنيراً ، اشتهر بعلمه ، وكان أيضاً شاعراً ناثراً)[٥] .

هذا هو حسن العطار فى تقدير جماعة من المؤرخين والعلماء والأدباء من

---

(١) تاريخ الإصلاح فى الأزهر ص ٢١ .

(٢) رفاعة الطهطاوى — سلسلة أعلام العرب — ص ٦٣ .

(٣) مجلة المجلة — عدد مارس سنة ٦٥ ص ٦٥ .

(٤) حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى — ص ٢٦ .

(٥) دائرة المعارف الإسلامية — المجلد الثانى — مادة أزهر ، ص ٦٥ .

أهل عصره ، ومن أهل زماننا . وسيمتد تقدير الرجل على مدى الزمان ؛ لأن تنبهه وتنبيهه إلى قيمة العلوم العصرية ، وإلى البعد عن الجمود قد آتى ثمرته ، وخاصة على يد تلميذه رفاعة الطهطاوى الذى كان رائد النهضة فى العصر الحديث .